

جمالية الغريب في الجسد الأنثوي (تجربة مريم شلتوت الخزفية نموذجاً)

فاطمة ديمق حرم قياداة

مساعد تعليم عالي بالمعهد العالي للفنون والحرف بصفاقس - تونس

داخل مغامرة فنية تبحث عن الاختلاف وتخرج عن المألوف. إن تجربتها الخزفية هذه قد فتحت آفاقاً لا محدودة في عالم الخزف معلنة عن خصوصية لا نهائية توليدية، إنها المعنى المفتوح للانفتاح تحمل العين المشاهدة نحو عالم مستحدث نابع من المادة واللون والشكل.

فبداية من النصف الثاني للقرن الماضي وفي الفترة المتراوحة بين السبعينات والثمانينات إلى غاية التسعينات تمحور الخطاب التشكيلي التونسي بين ثنائيي الأصالة والمعاصرة أو الانتماء والحدأة التي جعلت الفنان ينغمس في حوار ذاتي متواصل وصراع داخلي بين الفني والإيديولوجي وأصبح الأثر بقدر ما هو شكل في ذا مرجعية بصرية بقدر ما هو نقلة نقدية وحضارية يشكل اتساعاً إدراكياً وثقافياً يدفع بالتشكل الإبداعي في تونس إلى مرحلة هامة من مراحل الفن. ولقد تبرزت الفنانة "مريم شلتوت" على أسرار الفن وأيقنت هي أيضاً أن العمل الفني لا يعدو أن يكون فقط ممارسة حرفية لغاية وظيفية محضة تنهل من الإرث الحضاري ومن أنماط وعادات تقليدية حذقها الحرفي وأورثها لعدة أجيال متعاقبة، وعلى هذا الأساس مزجت "مريم شلتوت" بين ما هو حضاري قديم مع ما هو معاصر متجدد يحمل في طياته ثراءً دلاليًا بالغاً تعددت مجالات تأويله والتفاعل معه.

فالن الخزفي مع مريم شلتوت يجسد مبدأ الارتقاء من البساطة إلى التعقيد بما أن الفنان المعاصر يعتبر أن لا وجود لجسد كامل على صورته الأصلية والطبيعية، فكلما حاولت ألسنتنا أن تلهج بجملة الكمال تبقى في الأخير غير ناجزة وغير كاملة لأن المنحوتة الطينية ترفض أن توصف بالألفاظ أو أن تكون مجرد علامة عادية ولكنها بغرابتها تشق طريقها إلى عالم المفاهيم الحدائية حيث تنزع أولاً إلى الانتظام فنقول أن هذا شكل جسد آدمي مثلاً ثم سرعان ما يتلاشى المعنى ليبقى المتلقي كبنديل الساعة يتراوح بين النفي والإثبات. إنه جدل الوجود البشرية والأشكال الآدمية مع صور وأشكال لا تتكلم ولكنها تعلن الرفض والاحتجاج. إن مريم شلتوت فنانة رافضة تريد الإفلات من الحشيشات والتعاريف المألوفة السائدة لأجل تحطيم النظم المتوارثة في سبيل أن تمثل أعمالها كمال مآلنا الجمعي من جديد إثر ما جنيناه من العالم الحديث من تمسخ الإنسان تمسخاً رهيباً وإثر ما أصبح يعانيه هذا الكائن البشري من تفتتخ للذات وضياع للهوية.

منذ العصور القديمة لم يستنفذ الإنسان طاقاته في التعبير عن الجسد بكل ما لديه من خيالات وخامات متنوعة، لذلك أصبح هذا الجسد لدى الفنانين لغة تعبيرية تعبر عن الحالات والانفعالات، وقد كان لجسد المرأة الوقع الأكبر في التعبير عن حالات الانفعال الداخلي فهو يحمل الكثير من المعاني، لأن المرأة قد مثلت الآلهة في أغلب الحضارات المتعاقبة فقد وقع تفعيل المعنى الحسي لجسد المرأة بإجاءات غريزية حيث ظهرت منطقة الفخذ والبطن منتفختان لإعطاء معنى لعظمة الخصب والشهوة في بناء الكائن وهو المعنى المنسجم مع قدسية الجسد في جانبه الروحي وكونه منبع الحياة وحامل لوجودها الروحي فوقع تصوير جسد المرأة تصويراً يتناوب بين الواقعية والتعبيرية الرمزية. وقد اعتقد البابليون أن المرأة هي صناعة الإنسان بأمر من الإله فبطنها ينتفخ ثم تلد مولوداً فهي حلقة وصل بين الإله والرجل لذلك وقع تقديسها فهي إيزيس في العراق وعشتار في فينيقية وإيلات في بابل.

ونظراً لثراء الجسد الأنثوي فقد فكر الفنان القديم في تمثيل هذا الجسد فكانت "عشتار" على سبيل المثال من أوائل الأعمال الفنية الإبداعية منذ آلاف السنين بشكل يبرز ويضخم الأعضاء المرتبطة بالخصوبة والعطاء وقد اهتم الفنانون بمنطقة الثديين والحوض والبطن لأجل التعبير عن الرشاقة والجمال أو لأجل تصوير الأمومة والخصوبة من خلال أنداء ممتلئة أو بطن كبيرة. فجسد المرأة هو بالفعل النموذج الكامل المثالي للجسد البشري وهو ذو رمزية ساحرة فهو المسكن الأول للإنسان وللوليد الذي يتكون في الظلمات ليخرج نخباً إلى النور ويشرب من لبن أمه (سائل الحياة) الذي سيمدّه بالقوة والعنفوان ليكمل طريقه في هذه الحياة. ولأن هذا الجسد قد شغل العديد من الفنانين فهو في حاجة إلى كثير من الطاقة والإبداع لأجل حاجات روحية وفكرية ملحة أرادها الفنان حدثاً فنياً يبيّن لوجود عالم متخيل، عالم خاص به يعطي للأنثى صفة مركزية أصيلة في الوجود.

أما الفنانة التونسية مريم شلتوت فهي من الذين شغفوا بتصوير جسد المرأة الذي لا تبحث من خلاله عن التقليد بل هي تنغمس في التراث إلى أقدم حضاراته وتصور الجسد الأنثوي الغارق في خصوصيته

وعندما نقف على تجربة مريم شلتوت الخزفية ونتمعن في منحوتاتها الخزفية وبخاصة الجسد الأنثوي المشكّل بطريقة لا مألوفة تراودنا تساؤلات عدة عن كيفية التقاء هذه الجمالية الفنية والمقاصد الدلالية المتعددة. كيف يمكن تطويع الخامات لأجل هذه الأغراض الفنية من خلال رؤى وخيالات حسية ولا حسية تبدو في مجالاتها الضمنية أكثر غورا وعمقا من مجالاتها البصرية الشكلية؟ إنها ليست مجرد أجساد أنثوية بل هي أكثر من ذلك إنها رموز متعددة القراءات ذات ذوق فني راق قصد تجاوز سطحية الواقع والظاهر من الأشياء واستنباط مفاتيح حسية وفكرية لحل رموزها وفهم مقاصدها على نحو تصريح الحبيب بيده في مقاله "متاهة عالم الحلم" والتي يتعرض فيها لثنائتي الظاهر والباطن في أعمال فوزي الشتيوي من خلال مجسماته الطينية أنه "يبحث عن الخفي عبر الظاهر لكن هذا الظاهر ليس سوى مادة تشكيلية يشكّلها ويُحضرها حيناً آخر لتخرج منها أجسادا وأفعالا وأشكالا لينكشف له الجوهر من باطن المادة الطينية"⁽¹⁾. وليس بعيد عن ذلك فإن أعمال مريم شلتوت تميزت بدقة في البناء مرفوقة بإمكانيات تأويلية متعددة، فهي لها منطقها الخاص بها، منطق مسترسل في المكان والزمان يبحث عن لغة تشكيلية سامية ترفع الحُجب وتنبّ عن المعالم الروحية نابعة من المادة واللون والفكرة تُبنى في عالم خاص بها في تناسق وتناغم شكلي ولوني يستمد واقعه من اللاواقِع والمألوف.

لقد انطلقت الفنانة من الجسد الأنثوي تحفّه وتغيّره ثم تعيد بناءه فهي تقدم أشكالا بشرية غريبة قامت بتجريدتها من هيأتها الحقيقية لتتمم الدور الأكثر تعبيرا وإيجاء. لقد قامت الفنانة باختيار جسد المرأة كأساس لعملها الفني لذلك نلاحظ تشابها وأوجه التقاء بين مختلف المنحوتات إلا أنها لا تتعامل مع هذا الشكل المتكرر بنفس التعامل فهي تعطي لكل منحوتة هوية خاصة إذن هناك تكرار ولكن بشكل مختلف ومولد للتغيير. ويعدّ التعامل مع مادة الطين وسهولة تطويعها هو الحافز الأساسي الذي مكن الفنانة من خلق هذه الأجسام وتطويعها حسب أفكارها ورؤيتها المبدعة فتنتطوي هذه الخزفيات الجسمة على دعوة مستجابة للاستقراء والتأمل وافتكاك المعاني لأنها تخدع المشاهد بأنها متشابهة ومتكررة فالمشاهد لهذه الأجساد يفهم منذ الوهلة الأولى أن الجانب الفيزيائي هو الشغل الشاغل للعمل إلا أنه سرعان ما تتغير أفكاره ويلاحظ أن هذا الجسم البشري إنما هو كتلة ومادة خاضعة لتصرف الفنانة من خلالها تريد أن تصل بنا إلى فكرة جديدة وإلى بناء جسدي آخر غير مألوف يتجاوز الكينونة البشرية بدرجات عدة ويستنزف كل

خصوصية لها. ومن هذا المنطلق نستطيع أن نتبين أن أعمال مريم شلتوت تضعنا في قلب العالم الإستيطقي (الجمالي) بهدف خلاص الإنسان من هيئته الطبيعية أو الخروج من قشرته الأصلية بحيث يطغى الفني على العادي والمألوف لأجل تكريس انتقالية فيها دعوة للخلود الملائم بطبيعته لكل عمل فني إبداعي. لقد رفضت مريم شلتوت في أعمالها كل فراغ فهي بفلسفتها الفنية وحكمتها التقنية قامت بملاً أشكالها وتضخيمها وتدويرها وتكويرها حتى تظهر بدينة مضخمة إنها تبحث عن جسم جديد للمرأة جسم يترجم حياتها وانشغالها وهي تريد بذلك على حد تعبير ميرلوبونتي "تزعزع التناسق المعتاد فترك المتلقي وتشوش رفاسته الفكرية بل إنها تثير لديه ردود فعل شعورية متنوعة لعل أهمها الرغبة في مزيد المعرفة"⁽²⁾ هذه المرأة التي أعطتها الطبيعة وظائف عديدة أهمها الولادة والإنجاب ولا وجود لولادة دون انتفاخ فلا بد لهذا الجسم أن يضخم حتى يُخرج جسدا جديدا تعاني خلاله المرأة قساوة الحمل وأوجاع الولادة، فكان الانتفاخ على مستوى البطن ملحوظا وعلى مستوى الأرداف.

هذا الانتفاخ المبالغ فيه يجعل من الأجساد الأنثوية أجسادا لا مألوفة تعيش في عالمها الفني الخاص بها فتركب الشكل ولا يمكن له أن ينفذ من أبواب الواقع أليس "التغيير في العلاقات يولد التخيل والتغيير في الشكل والجوهر ينتج التخيل باعتبارهما انزياح عن الواقع بشكله وجوهره وعلاقاته في وضعها المألوف"⁽³⁾ إنها تبحث عن معاني ودلالات في مخيلة المتلقي الذي يبقى حائرا بين فيزيائية الشكل ومدى وظيفته الحياتية. ولعل المتأمل في هذه المنحوتات الخزفية يلاحظ أنها بقيت غير مكتملة وكأن الفنانة تبحث عن ترك آثار أصابعها على المادة بل وتبدو الأجساد كأنها من معادن شديدة الصلابة وسوداء محترقة في ألوان وأشكال تبعث على الموت والسكون والفناء.

لقد اجتهدت "مريم شلتوت" في عملها الفني والتقني لأجل أن تعطي لمنحوتاتها بصمة خاصة، إنها مجسّدات أنثوية شديدة البدانة غريبة التركيب ومفحّمة، فهذه المرأة هي مصدر الحياة ومطعممة البشرية، إنها المرأة المنتجة يعانى جسمها ما لا يعانى الرجل فمريم شلتوت تلمّح هنا لوجود الذكر الذي لا يقاسم المرأة هذه الأنتعاب لأنها الأقدار الطبيعية والفيزيولوجية، فشدة الحرارة هي من مميزات جسم المرأة إنها حرارة الحب والولادة والأمومة فهذا الجسد الذي يبعث الحياة والسرور في أجساد أخرى تراه يحترق ويموت رويدا رويدا في تصوير فني رائع، فمريم شلتوت (هذه الأنثى أيضا) تعاني ما عانته المرأة منذ حواء إلى يومنا هذا ولكنها تبحث هنا عن الإبداع

والطرافة تريد لتصويرها الفني أن يكون خلافاً فريداً لأجل أن تثبت وجودها ووجود منحوتاتها .

ولعامل الصدفة الدور البارز في عملية الفعل الفني، هذه الصدفة التي تبحث من خلالها عن الفكرة ولكن دون أن تتحكم كلياً في العمل الفني لأنه يجب أن يبرهن على إبداعه وفعله فهو ينطلق من اللامتوقع لأجل مقاصد معينة حيث يرى خليفة شلتوت أنه "بين اللون والخط، والظل والضوء، والمساحة والفضاء، والسطحية والشفافية تبدو المناهج عديدة"⁽⁴⁾. وتشترك هذه الأجساد الأنثوية في أنها كانت حاملة لرؤوس صغيرة الحجم مقارنة بكامل الجسم مما يزيد في التشويه والتغيير فهذه الأجساد تبقى غريبة التكوين لا واقعية من خلال الأشكال والهيئات ولكنها تؤدي وظائف فنية سامية. إنها رؤوس صغيرة تبدو وكأنها لا تستكمل وظيفتها الطبيعية كمأمن لروحانية الإنسان تأخذ اتجاهات مختلفة إما تنظر إلى الأعلى أو على الجهتين اليمنى واليسرى أو مشوشة الفكر تعلقو محيّاها دهشة وفراغا.

تُلقي بنا الفنانة في جملة من التساؤلات التي تصب في الجانب الروحي لهذه الأجساد الأنثوية، فضخامة الجسد الذي تقابله رؤوس صغيرة فيه كثير من التناقض الذي يولد الغرابة، أنه العالم الرؤيوي للفنانة إذن، لقد أرادت مريم شلتوت أن تركز على كتلة الشحم واللحم مغيبة في تلك المادة الشحماء لتقول أن المرأة حاضرة بجسدها وليس بفكرها وقد تكون تلك مخلفات الحضارة ، هذه الحضارة والتي طمست فينا الذاتية والشخصية وأصبحت المرأة سلعة تباع وتشترى وتقاس بشحمها ولحمها وليس بفكرها، فبين غرابة التمثيل الفني وأهمية الفكرة يمكن للمتلقي أن يجد سبلا متعددة لقراءة العمل لأجل تلك الصرخة المشتركة مع الفنانة فهي تمثل في منحوتاتها أجساداً أنثوية تكون أحيانا مجتمعة أو في هيئات مختلفة من الحياة اليومية.

فهل هذه البدانة هي تصوير لخصوبة المرأة وعطائها أم هو نقد لحالة اجتماعية حضارية أصبح فيها جسم المرأة مضاربة في الأسواق ومناقصة في عالم الموضة والإشهار؟

لماذا هذه الأجساد الشبه عارية، هل أن الفنان المعاصر الحدائثي يفكر مثل الفنان القديم؟ هل هو تقديس للمرأة أم تدنيس للممارسات الجديدة المسلطة على جسد المرأة؟

تقدم لنا مريم شلتوت منحوتات طينية صامتة تحبب أسرارها بين طيات جسمها المتضخم والبدن لا تريد أن تذيب شحومها فتتعرى حقيقتها بل إن في بدانتها اعتراف بحقيقة وجودها من خلال مادة طينية ممزوجة ومجولة بالألم والاحتراق. إنها أجساد تفحمت واحتقرت بين يدي صانعتها وبين أحضان المعاناة الاجتماعية حيث

ماتت المرأة الأم لتولد المرأة الأخرى التي ستزين شاشات التلفاز ولوحات الإشهار .

ولعل التضخيم هو من أهم الميزات التقنية التي حولت للفنانة السفر بفكرها وإبداعها إلى عوالم لا مرئية تجدد فيها ضالتها وتمكنها من تصوير الحقائق ليس على هيئتها الطبيعية بل بكثير من اللاواقعية واللاشعورية التي ستتهرب الفنانة من خلالها من حيثيات المألوف والسائد من خلال أجساد لا مفر لها من ميسم الحضارة الاجتماعية والحدائث الفنية ولكنها تلتحم مع تجربة فنية حدائية. فجسم المرأة كان إغراء لفنانين كما سبق وأشرنا على مر العصور فهي نقطة تميز هامة على مستوى الإثارة والإغراء ولكن مريم شلتوت قد تعاملت مع هذه الأجساد الشبه عارية تعاملًا خاصًا باعتبارها حقيقة جسدية إنسانية فبين الإخفاء والعراء تكون الفنانة قد مرت بأفكار عدة ومقاصد عديدة لأجل البوح بأسرار منحوتاتها.

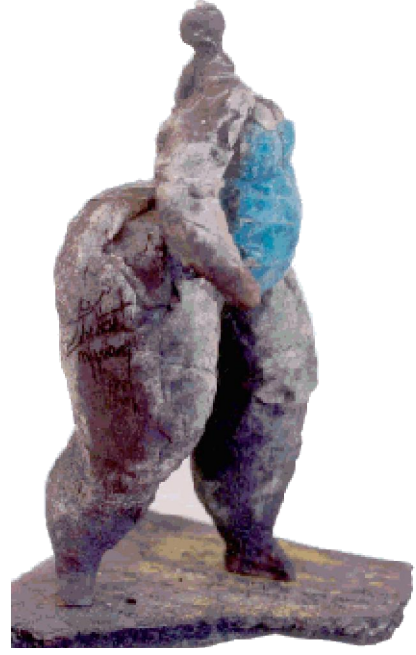
صور مرافقة للمقالة



مریم شلتوت، امرأة جالسة، راکو، 32 صم



مریم شلتوت، الضاحكة، راکو، 46 صم



مریم شلتوت، بدون عنوان، منحوتة بتقنية الراكو، نحاس مصقول

الهوامش:

1. جريدة الصحافة 5 جانفي 1990 مقال بعنوان في متاهة عالم الحلم بقلم الحبيب بيده.
2. «Exposer c'est troubler l'harmonie. Exposer c'est déranger le visiteur dans son confort intellectuel. Exposer c'est susciter des émotions, des colères des envies d'en savoir plus » ... »Claire Merleau-Ponty, Jean Jacques Ezrati, L'exposition, Théorie et Pratique, ed. L'Harmattan, Paris, 2005, p31.
3. عبد الستار جبر عداي، تجليات اللغة البصرية نشر دائرة الثقافة والإعلام الشارقة دولة الإمارات العربية المتحدة 2002 ص 125.
4. « Entre couleur et ligne ombre et lumière surface et espace aplat et transparence les chemins sont multiples . »
Cheltout khalifa. <http://www.toulouse-atoutcoeur.com/donnees/pages/document/Catalogue-Cheltout>

